



القدس وفلسطين بين هبتين:

هبة أيار 2021، وهبة نيسان - أيار 2022

د. وليد سالم

جامعة القدس - مدير تحرير مجلة المقدسية

ملخص

تُحاجج هذه الورقة أن هبتي 2021 و2022 قد مثلتا منعطفًا فيما سمّته بـ«المقاومة الشعبية الفلسطينية للاحتلال والاستعمار الاستيطاني في فلسطين»، وذلك كتجاوز لثنائية التفكير المتضاد بين العنف واللاعنف، والكفاحين السلمي والمسلح. شكّل هذا المنعطف الذي بدأت بوادره في هبة عام 2014، ووصل ذروته في هبتي 2021 و2022، ما يشبه إعادة الولادة الجديدة، وذلك بعد أن كان الكفاح الفلسطيني قد تراجع من الوطنية الشاملة إلى الجغرافية المحلية بعد انتهاء انتفاضة عام 2000، وتميز هذا المنعطف بإعادة اكتشاف الشعب الفلسطيني وحدة حاله المكرس منذ تصريح بلفور عام 1917، وحتى قانون القومية الصهيوني عام 2018 وصفقة القرن عام 2000، حيث اعتبر مجرد أفراد وطوائف تقتصر حقوقها على الجوانب المدنية والدينية وحسب، في بلد مخصص حصريًا - بالمفهومين الغربي والصهيوني - لما يسمى بـ«الشعب اليهودي»، وهو ما

ترتب عليه العودة الفلسطينية الجماعية إلى منهجية وأشكال نضال التحرر الوطني، التي شهدت تراجعاً نسبياً بعد نشوء السلطة الوطنية الفلسطينية عام 1994 لصالح منهجية البناء الوطني تحت الاحتلال، ضمن افتراض أن هذا البناء سيجلب عنه إقامة دولة فلسطينية تنشأ على حدود عام 1967 من خلال اتفاق تفاوضي. تكرست هذه العودة إلى فكر وممارسة التحرر الوطني من خلال ممارسة أشكال كفاحية ستة: كفاحية ميدانية، وسياسية ودبلوماسية، واقتصادية تنموية، وقانونية، وإعلامية، ومعرفية، شاركت في تنظيمها الحركات والحراكات واللاحركات وعموم الشعب الفلسطيني في كل أماكن تواجد داخل الوطن وخارجه، وبدعم من حركات التضامن والشعوب العربية والعالمية، ولعبت القدس دوراً مركزياً فيها كما كانت على مدى التاريخ الفلسطيني، وينبغي لهذه الأشكال أن تستمر وتتصاعد وتتخذ مسارات إبداعية في إطار تعزيز عملية تثبيت الوجود وبناء المستقبل ضمن معركة مستمرة من الكر والفر مع الاستعمار الاستيطاني في فلسطين، وبوصفها أي عملية تثبيت الوجود كمعركة مستمرة مرحلة لتحقيق التراكم الذي يقود لاستنزاف المجتمع الاستعماري الاستيطاني على طريق دحره.

كلمات مفتاحية

العنف، المقاومة الشعبية وأشكالها الستة، الاستعمار الاستيطاني، تثبيت الوجود كعملية مستمرة، الحركات والحراكات واللاحركات.

مقدمة

تهدف هذه الورقة إلى قراءة موقع ودور هبتي أيار/ مايو 2021، ونيسان وأيار 2022 كحالتين دراسيتين في تطور أشكال النضال الفلسطيني في المواجهة مع المشروع الاستعماري الاستيطاني في فلسطين.



تفترض الورقة أن الهبتين لم تكونا مجرد ردّتي فعل على اقتحامات الأقصى والشيخ جراح، بل مثلتا فوق ذلك مبادرة كفاحية مبدعة ومتعددة الأشكال النضالية لتثبيت الوجود الفلسطيني من خلال عملية كفاحية مستمرة كخطوة على طريق تحقيق الانتصار اللاحق؛ عبّرت عن وعي عميق لنظام السيطرة الصهيوني واتجاهات العمل لمكافحة والتغلب عليه، وهذا ما جعل منها منعطفًا كفاحيًا نوعيًا تضمن أيضًا وحدة شعبية فلسطينية غير مسبوقة وتضامنًا شعبيًا عربيًا وعالميًا منقطع النظر.

كان للهبتين أسباب موضوعية وذاتية، تتعلق الموضوعية منها بالانكشاف التام لهدف المشروع الصهيوني في أذهان كل أبناء الشعب الفلسطيني، وهو الهدف المتعلق بالاستيلاء على كل فلسطين من البحر إلى النهر، حيث قانون القومية لعام 2018 يستعيد تصريح بلفور لعام 1917 وليتكرر لاحقًا في صفقة القرن عام 2020، كاشفًا الهدف الصهيوني بجلاء كل فلسطين هي أرض إسرائيل والتي تعود حصرًا للشعب اليهودي كما ورد في نص القانون. وجاء السبب الموضوعي الثاني الذي عبّر عن نفسه بإنهاء الاحتلال الفعلي لعملية أو سلو بشكل كامل من طرف واحد، ورفضه لأي مفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية، كما تكشف بشكل تام ظهرت معاملة سابقًا خلال فترة حكومة المستوطن نفتالي بينيت بين حزيران 2021 وحزيران 2022. لحقت هذان السببان الموضوعيان أسباب ذاتية فلسطينية، تمثلت أولاً في إعادة اكتشاف الفلسطينيين لأنفسهم باعتبارهم شعبًا واحدًا يواجه نفس المصير في النقب والمثلث والجليل والقدس والمحافظات الفلسطينية الشمالية والجنوبية. وتمثلت ثانيًا فيما مثلته القدس وما يجري فيها من إجراءات وممارسات ضد المسجد الأقصى، وضد البشر والحجر في كل أرجاء المدينة، من صمغ لاصق ربط كل أبناء الشعب الفلسطيني في مواجهة واحدة مع الكيان الصهيوني باستخدام كل وسائل الكفاح، وقد كان هذا دور القدس المركزي لفلسطين قائمًا على مر العصور، وتكثف مجددًا في هبة أيار، كما ستبين الدراسة.

جاءت الهبتان نتاجاً لاختبارات سابقة تتطرق لها الورقة. وتتضمن الورقة أيضاً مقارنة بين الهبتين.

تبدأ الورقة بإطار نظري عن المقاومة، يتلوه عرض لأشكال ومراحل المقاومة الشعبية في فلسطين وتجاربها في التاريخ الفلسطيني المعاصر، وأدوار الشعب والحركات، وكذلك الحركات و«اللاحرقات» فيها، ثم تنتقل إلى مراحل تطور المقاومة في القدس منذ عام 1967 وحتى اليوم لتوضيح الاختبارات التي أدت إلى هبتي 2021 و2022، بعد ذلك تحلل صيرورتها وسماها ومعنى كونها منعطفاً في إطار عملية الكر والفر المستمرة مع الكيان الاحتلالي، وتنتهي الورقة بخلاصات حول آفاق الصراع مع الحركة الصهيونية ودولتها.

منهجياً، تستند الورقة إلى نوع من المقاربة الاستعمارية الاستيطانية التي لا تجعل مسار المشروع الاستيطاني الاستعماري حتمي النجاح، بل مرهونٌ بحاصل الصراع بين هذا المشروع وبين الشعب الأصلي، ولهذا تدرس الورقة ديناميات هذا الصراع وتحولاته من فترة إلى أخرى وآفاقه. وفي هذا الإطار تعتمد الورقة على أدبيات الاستعمار الاستيطاني، والدراسات العلمية حول المقاومة ومسبباتها، والدراسات المختلفة حول المقاومة الفلسطينية عبر الحقب المختلفة، إضافة إلى ملاحظة الكاتب من خلال معاشته للواقع اليومي في القدس، وفيها يواصل الباحث جهوداً بحثية سابقة له في هذا الإطار، سترد إشارات لها في هذا النص.

إطار نظري: الهبتات، من الحركات إلى الحركات واللاحرقات وطوفان الشعب للساحات العامة

تدعي أطروحات ما بعد الحداثة أن زمن التحرر الوطني وحركاته قد انتهى. في هذا الإطار يرى جان فرانسوا ليوتار (Jean Francois Lyotard) أن العالمية الأحادية (Universality)، قد قادت البشرية إلى حالة من اللاإجماع، مما أفقد السرديات الشاملة



(Metanarratives) معناها، وأصبحت الحقيقة والحقائق هي ما يطرحه المهيمنون فقط وفقاً لرغباتهم ومتطلبات تعزيز قوتهم. (Stanford Encyclopedia of Philosophy). في غياب الإجماع تصبح الحقيقة مستحيلة، والعدل مستحيلاً، وتسود القوة وما تطرحه من «حقائق لا يمكن تبديلها أو الكفاح في مواجهتها، وتتلاشى مسرودات التنوير والتحرر الوطني والاجتماعي لصالح ثقافة الأدوات المحلية التي لا يهتمها سوى إنجاز الأشياء عبر استغلال الموارد». هكذا يقول ليوتار (سعيد، 1997، ص. 89).

إذ ينتقد ليوتار العالمية الأحادية (Uni)، فإنه في المقابل يعول ما يجري في الغرب من انتهاء قيم التحرر والتضامن وانتشار المد التكنوقراطي الأداقي في التعامل مع الموارد، المحايد تجاه السياسة والناكر للمبادئ وقيم الحرية والمساواة والعدالة، وذلك عبر جعل هذه الظواهر عالمية. إنه إذا وقع في أسر الأحادية العالمية التي ينتقدها، موفراً غطاء لفرض اللاقيم الحياضية الغربية على العالم، ظناً منه أن العالم كله قد أصبح يسير على هداها، وأن شعوب دول العالم قد استبطنتها في سلوك أفراد محلياتها.

على عكس ما يطرحه ليوتار، وكذلك تيارات الليبرالية والنيوليبرالية السائدة، فإن المرء عندما يوجه وجهه شطر اتجاهات أخرى غير الغرب، فإنه لا يجد اتجاهًا واحدًا، بل ثلاثة اتجاهات رئيسية: الأولى هي المحللة أو المحلية (Localization) كحالة نكوص ورد عكسي يرفض كل ما هو غربي بما في ذلك ثقافة الغرب وقيمه، والثانية هي التغربن من قبل نخب تستبطن خطاب الغرب وتساعد في السيطرة على مجتمعاتها ونهبها، والثالث هو توجه التعددية العالمية (Plura - Versalism) الذي يتمثل في خطاب جنوبي انطلق من أميركا اللاتينية ويطرح التحرر من الأبستمولوجيا والنظم المعرفية الغربية التي تبرر الاستعمار، وكذلك من الطرز المعرفية والاجتماعية التي يخلفها الاستعمار في المجتمعات التي كان يستعمرها سابقاً (Decolonization of Knowledge). لا يقول هذا التوجه

الذي عبّر عنه كوينجانو وميجنولو وآخرون بالتنازل عن القيم الإنسانية المشتركة التي راكمتها الحضارات الإنسانية عبر تطورها، ولكنها طرحا التخلص من تلك المفاهيم التي تسعى لتعزيز هيمنة الغرب على شعوب جنوب العالم مثل طرح مقولة الانعتاق (emancipation) كبديل عن مقولة التحرر (liberation) على سبيل المثال لا الحصر، والأعمق هو أنها طرحا التخلص من الأفكار التي تبرر الهيمنة الأحادية الغربية على العالم، والأفكار الاستعمارية والعنصرية حول تفوق عرق على آخر، وأخيرًا الأفكار الاستشراقية التي ترى الشرق وفق ما يشتهي الغرب أن يراه وليس كما هو عليه في الواقع (سعيد 1981، وسالم، 2021 و2022).

في المقابل طرح كوينجانو وميجنولو وجود قيم عالمية متعددة يجب الكفاح لتعايشها وتلاقحها معًا دون هيمنة أو سيطرة لأحد منها على الآخرين كما تحاول فعله المركزية الغربية كوينجانو 2007، وميجنولو 2007. على عكس ليوتار الذي أغلق الأبواب أمام التحرر من الاستعمار، فإن أفكار كوينجانو وميجنولو وإدوارد سعيد تفتحها، وكذلك تفعل كفاحات الشعوب المستمرة للتحرر من هيمنة دول الشمال على العالم، وكذلك من الاستعمار الاستيطاني كما هي الحال في فلسطين.

في دول الشمال يدور الكفاح التحرري المعرفي والاقتصادي والسياسي لإنهاء النيوكولونيالية، التي تمثلت بخروج الاستعمار العسكري وحلول الاستعمار الاقتصادي مكانه، كما يدور لإنهاء كل مظاهر السيطرة ما بعد الكولونيالية (Post – Colonial) من خلال الإعلام، والإعلام المجتمعي الجديد، وترويج المفاهيم والثقافة الاستعمارية، والتمويل المشروط، وغير ذلك من الأساليب التي ترمي لخلق نخب محلية منخرطة في مشاريع تأييد السيطرة الاستعمارية على شعوبها بمعزل عن تلك الشعوب. تمارس الشعوب ثقافة الصمت المتمرد تجاه هذه السياسات فريري، 1968، أو تدخل على العكس في حالة سبات استعماري سلبي فانون، 1963، أو تقاوم بدل ما سبق بوسائل



مختلفة طرحتها دراسات التابع الهندية (Subaltern Studies) التي تركز على التعبير عن أماني وتطلعات وآمال التابع سيفاك، 2021 وكما طرحتها دراسات مواجهة الاستعمار الداخلي في أميركا اللاتينية والولايات المتحدة، حيث تستعمر الدولة جزءاً من شعبها أو من يفترض أن يكونوا جزءاً من شعبها كازانوفاً 1965، بلاونر 1972، واكونا 2007، أو كما يمارس بشأن فلسطيني الداخل المحتل عام 1948 حسب إيليا زريق (زريق، 1979).

أما في فلسطين، فقد سادت المفاهيم الغربية المعادية للتحرر منذ فجر القضية الفلسطينية مما لا يتسع نطاق هذا البحث لتناوله، وما يهم هنا هو فترة ما بعد فترة التوقيع على اتفاق أوسلو، حيث ما إن وقع الاتفاق حتى صار النظر إلى فلسطين غربياً على أنها أصبحت في حالة ما بعد نزاع (Post - Conflict) (حنفي، 2006، ص، 13)، وصممت غربياً لهذه المرحلة برامج لبناء السلام وطُوبل الشعب الفلسطيني بوقف العنف والمقاومة، وطرح بناء مؤسسات الدولة الفلسطينية تمهيداً لاستقلالها، الذي روج للشعب الفلسطيني على أنه سيحصل بناءً على افتراض وجود حسن النوايا عند دولة الاحتلال. ولكن الواقع كذب هذه الأوهام، فقد حصلت مجزرة في الحرم الإبراهيمي الشريف في شباط 1994 وذلك قبل أن يجف حبر اتفاق أوسلو، وشق الاحتلال نفقاً داخل البلدة القديمة من القدس وفي مكان قريب من المسجد الأقصى المبارك عام 1996 أدى إلى اندلاع مواجهة مسلحة بين قوى أمن السلطة الوطنية الفلسطينية وبين الاحتلال. هذه وغيرها من المحطات كشفت الوهم الغربي بأن مرحلة التحرر الوطني قد انتهت لتحل محلها مرحلة البناء الوطني فقط ودون استمرار الكفاح الوطني بعد توقيع اتفاق أوسلو. وبالنسبة للاحتلال فهو لم يرد كلا عمليتي البناء الوطني والتحرر الوطني، بل سعى لاستكانة الشعب الفلسطيني وخضوعه وحسب، دون أن يتنازل من جانبه عن عنفه ضد الشعب الفلسطيني.

العنف هو جزء صميمي من ممارسة الدولة أو الكيان القائم بالاستعمار، ويتخذ هذا العنف أشكالاً متعددة، صنّفها والتر بنجامين بأنها عنف لإنفاذ القانون (Law Preserving Violence)، وعنّف لصنع القانون (Law Making Violence) حيث لا تمارس قوى إنفاذ القانون عنفها لإنفاذه وحسب، بل تمارسه وفق تفسيرها له. وعنّف موجه بالأسطورة يمارس لجعل الأسطورة المتخيلة تصبح واقعاً (Mythic Violence)، وعنّف سماوي (Divine Violence) هو عنف بديل يهدف لإنفاذ الحق والعدالة، وهو ما يرى بنجامين أنه ليس قائماً في العالم المعاصر بنجامين، 2021.

من الجهة المقابلة لطرح بنجامين، فإن عنف الشعب الخاضع للاستعمار هو عنف مركب من حيث أهدافه وغاياته. في هذا الإطار فإن عنف الشعب الخاضع ليس مجرد رد فعل على عنف قوى الاستعمار، بل هو عنف هادف لتحرير الأرض والإنسان. وإذا انحدر عنف الشعب الخاضع للاستعمار إلى مجرد ردة فعل فإنه يفقد هدفه ويتحول إلى عنف من أجل ذاته، وبذلك ينزل نحو التدمير بدلاً من التحرير، بما في ذلك تدمير موارد المقاومة ذاتها وإهدار طاقة قوة الشعب المقاوم باتجاه اللاشيء. العنف المقاوم إذاً هو عنف يطهّر الإنسان من أسر الخنوع والقنوط ويطلق طاقاته التحررية في صنع مصيره بنفسه فانون 1963، كما أنه من جهة أخرى يؤدي إلى تحرير مجتمع الاستعمار من جموحه للاستمرار بالسيطرة على شعب آخر، هذا عوضاً أنه ذو هدف إضافي يتعلق بتحرير الأرض وتحقيق التحرر الوطني والاستقلال. إنه عنف يحرر المستعمر بفتح الميم مما يكبله، ويحرر المستعمر بكسر الميم مما يشوهه ويفسده، لاسيما النزوع للسيطرة على شعب آخر بالقوة. لذا فهو عنف مركب متعدد الأهداف.

المقاومة الشعبية في فلسطين أشكال ستة، وحركات وجرافات ولا حركات

وفي الواقع، تتخذ المقاومة للاستعمار بما في ذلك في حالة فلسطين أشكالاً كفاحية ميدانية، واقتصادية تنموية، وقانونية، وسياسية دبلوماسية، وإعلامية، ومعرفية، وفي



ميدان التنظيم تتمثل في حركات، وحركات، ولا حركات، أو مزيج من كل ذلك، وتحاول هذه الورقة تفصيل ذلك من أجل المساهمة في تطوير دراسات حالات المقاومة عن الأوضاع الخاضعة للاستعمار الاستيطاني ومنها فلسطين. ونبدأ بأشكال المقاومة: أول أشكال المقاومة هو المقاومة الكفاحية الميدانية، والتي سماها كل من قمصية ودرويش في حالة فلسطين بـ«المقاومة الشعبية» (قمصية، 2011، ودرويش 2015). وقد اختاروا هذه التسمية وليس اللاعنف، أو المقاومة السلمية، وذلك لأنها شملت مزيجاً اختلط فيه العنف مع اللاعنف، هذا إلى جانب اكتساب الطابع الشعبي. واتسمت المقاومة الفلسطينية منذ عهد الانتداب البريطاني بهذا الطابع في هبات 1920 و1921 و1929، وثورة 1936 التي شهدت أيضاً إضراباً تجارياً دام لمدة ستة أشهر، واستمرت كذلك بعد استكمال الاحتلال الصهيوني لبقيّة فلسطين عام 1967 فكانت هبات 1972، و1974، و1980، و1982، ثم الانتفاضة الأولى عام 1987، والثانية عام 2000. تميزت الانتفاضة الأولى بالطابع الشعبي (مشاركة كل الأجيال، وكل الطبقات وكل الفئات، والجنسين وكل المواقع، والطوائف)، وباعتماد اتجاهات مختلفة كفاحية ميدانية واقتصادية تنموية، والإبداع في الوسائل، والتناغم بين الشعب والقيادة في الاستجابة لما يرد في بيانات الانتفاضة وتنفيذ مهماتها رغم انقسامها بين القيادة الوطنية الموحدة والحركة الإسلامية (مجموعة من المؤلفين، 1990). أما الانتفاضة الثانية فقد بدأت شعبية، ولكنها تحولت سريعاً إلى مواجهة مسلحة. طرحت الانتفاضة الأولى مطلب «الحرية والاستقلال»، الذي لم يتحقق بسبب عدم التناغم في الأداء بين مهمات التحرر الوطني والبناء الوطني وتحقيق تكاملهما بعد توقيع اتفاق أوسلو عام 1993. أما انتفاضة عام 2000، فقد انتهت عام 2005 بانسحاب أحادي للاحتلال من داخل قطاع غزة وتفكيك المستعمرات الصهيونية فيها، مع الاستمرار في الوقت ذاته في إغلاقه من جميع الجهات كسجن كبير مراقب على مدار الساعة (panopticon).

أما المقاومة الاقتصادية التنموية، فقد عرفت ثورة 1936 مقاطعة للمنتجات الصهيونية والإنكليزية، ولكن انتفاضة عام 1987 قد تميزت بجمعها بين المقاطعة الاقتصادية وبين التنمية، وذلك من خلال المبادرة إلى استصلاح الأراضي وإقامة مشاريع للاعتماد على الذات، كما اتخذت مبادرات للتمرد على هيمنة الاحتلال كرفض بلدة بيت ساحور دفع الضرائب، وإغلاق فروع البنوك ودوائر المؤسسات الاحتلالية في المدن الفلسطينية، واستقالة عناصر الشرطة من جهاز شرطة الاحتلال. يضاف لذلك بالنسبة للجاليات الفلسطينية حملة المقاطعة وفرض العقوبات وسحب الاستثمارات من اقتصاد دولة الاحتلال ومن مستعمراته المقامة في الأراضي الفلسطينية المحتلة عام 1967. وهو جهد كرست وزارة إسرائيلية كاملة لمواجهته هي وزارة الشؤون الإستراتيجية، ومع ذلك فقد حقق الكثير من الإنجازات في مجال استقطاب شركات وبلديات ومؤسسات أكاديمية قررت مقاطعة الاحتلال.

في الجانب القانوني، نشطت في هذا الجانب من المقاومة مؤسسات حقوق الإنسان منذ أواخر سبعينيات القرن الماضي في الدفاع عن حقوق الإنسان الفلسطيني وتقديم التقارير بشأن الانتهاكات الإسرائيلية لها للمؤسسات الدولية المعنية. وقد شهدت السنوات الأخيرة اهتماماً فلسطينياً أوسع بالمقاومة القانونية للاحتلال، سواء من خلال رفع قضايا رسمية للمحكمة الجنائية الدولية، أو رفع قضية في القضاء المحلي والبريطاني لمطالبة بريطانيا بالاعتذار عن تصريح بلفور (ووثقها سالم، مجلة المستقبل العربي، تموز 2021)، هذا إضافة لمبادرات الجاليات الفلسطينية في كل أنحاء العالم، سواء ضد تجريم حملات المقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات على دولة الاحتلال، أو لفرض عقوبات على الشركات التي تستثمر في المستعمرات الصهيونية في الأراضي الفلسطينية المحتلة عام 1967، هذا إضافة للكفاح القانوني في مواجهة التعريف الصهيوني - الغربي للاسامية (رائف زريق، 2019 و2020)، وهكذا.



في الجانب السياسي الدبلوماسي الرسمي والشعبي (الدبلوماسية الشعبية)، هناك على الصعيد الرسمي العمل من أجل تحصيل المزيد من الاعترافات بدولة فلسطين، وعلى صعيد الجاليات الضغط والتواصل مع أعضاء الكونغرس وبرلمانات الولايات في أميركا لزيادة أصدقاء فلسطين داخلها، ولتقديم مشاريع قوانين مساندة لفلسطين والشعب الفلسطيني ومنع إقرار أخرى مساندة للاحتلال، وبالالتجاه ذاته تعمل الجاليات الفلسطينية في أوروبا ومع البرلمان الأوروبي وبرلمانات الدول المنفردة، هذا إضافة للعمل على مستوى البلديات.

في الجانب الإعلامي، ينشط الشباب، لاسيما من خلال الفضاء المجتمعي الجديد في إطلاق حملات تعريفية بفلسطين وقرائها المدمرة عام 1948، وتنشط في ذلك الجاليات الفلسطينية في كل أنحاء العالم أيضاً، وفي كل يوم يتعرف المرء على مبادرات جديدة في هذا المجال، حيث بات من الصعب حصرها إلا من خلال بحث خاص معمق حولها. وأخيراً في الجانب المعرفي، يعود الاهتمام الفلسطيني مجدداً بقضايا مثل إعادة الاعتبار لتحليل وفهم ما يجري في فلسطين على أنه استعمار استيطاني يخدمه احتلال عسكري ويتغلف بمظاهر أبارتهايدية (غانم 2018)، ونقض الرواية الصهيونية حول تاريخ وحاضر ومستقبل فلسطين، وتصحيح مفاهيم مثل مفهوم أن الصراع يجري بين طرفين متماثلين المسؤولية عنه، وأن الحل يكون عبر مساومة وتنازلات متبادلة من كل منهما على طريق إنجاز صفقة تسمى معاهدة سلام، وترتب عن هذا التصحيح إعادة الاعتبار لقضية التحرر الوطني والطريق لإنجازه، جنباً إلى جنب مع استمرار البناء ممثلاً في بناء المؤسسات وتنمية المجتمع لتعزيز صموده وثباته على أرضه. ويشهد البحث الفلسطيني صحوة جديدة بهذا الاتجاه يشارك فيها بشكل خاص جيل من الباحثين الشباب لا يمكن ذكر بعضهم هنا، فقط لكي لا ينسى المرء آخرين كثيرين يقومون بإنتاج فكري علمي مذهل يقع في غالبيته تحت إطار علم الاستعمار المقارن.

ومن المذهل أن هذا الجيل من الباحثين الشباب لا يقتصر وجوده على داخل الوطن، بل يمتد ليشمل كل تجمعات الشعب الفلسطيني في أرجاء الأرض كافة، يمثلون شبابًا يحملون جنسيات البلدان التي يعيشون فيها أبا عن جد. كان الافتراض أن هذه الأجيال التي لم تر فلسطين مطلقًا ستنسى، وأن تكون قد اندمجت في المجتمعات التي لجأ إليها آباؤها وأجدادها، ولكن العكس تمامًا هو ما حصل بما يشبه إعادة ولادة للشعب الفلسطيني مرة بعد أخرى.

خاض الشعب الفلسطيني كله المقاومة من خلال هذه الأشكال الستة وفي كل أماكن تواجده في فلسطين المحتلة عام 1948، وعام 1967 وبين اللاجئين وعموم الجاليات الفلسطينية في كل أنحاء العالم، وتم تنظيم الأعمال الكفاحية من خلال الحركات والحراكات واللاحركات.

تتميز الحركات (Movements) حسب ريتشارد تيلي بأنها تكوينات جماعية متنافسة للوصول إلى السلطة والتأثير وتشكل وفق هدف / أهداف وقيم يلتف حولها أعضاؤها ويلتزمون بها (تيلي، 2014). ولكن في إطار حركات التحرر الوطني، فإن هدف هذه الحركات يكون هو الكفاح من أجل الحرية والاستقلال. وتتمثل هذه الحركات في فلسطين بالفصائل السياسية الوطنية والإسلامية، وكذلك بحركات الجذور (Grassroots Movements) المرتبطة بها مثل الأطر الطلابية والشبابية والعمالية والنسوية والمهنية.

أما الحركات (Activism) كما سمّاها أحمد جميل عزم، فهي «عبارة عن موجات من الاحتجاج المفتقر للأيدولوجيا إلى حد كبير وغير المرتبط بالأحزاب، التي تؤمن بالعمل المباشر في الشارع لتحقيق هدف ما، مع ترك تطورات الأحداث في الميدان توجه دفة الأمور، دون خطط ومطالب وبنى معدة مسبقًا، ودون قيادات واضحة للحركات»



(عزم، 2019، ص. 10). وتتكون الحركات حول أهداف محددة قصيرة المدى.

أما اللاحركات (Non Movements) وهو مفهوم جاء به آصف بيات (بيات، 2013) فهو يصف طوفان الناس في الشوارع والساحات العامة والحضور الفاعل فيها دون أن يربطهم مسبقاً رابطاً جمعي، سواءً كان أيديولوجياً أو تنظيمياً كما في حالة الحركات. بهذا الاتجاه يبدو أنه في زمن الفضاء الإلكتروني الجديد، فقد انتشر الوعي وأصبح الكفاح من أجل الهدف الوطني أو الاجتماعي ليس محصوراً بنخبة منظمة، بل امتد للشعب بأسره، وهذا ما أصبح يلقي بأعباء وجهود تنظيمية أكبر على الحركات لجهة كيفية تنظيم ذلك من خلال المبادرة في الانخراط في الطوفان الجماهيري بمجرد اندلاعه والإسراع في عملية تنظيمه من أجل ضمان استمراره وتراكم وبناء إنجازاته فوق بعضها البعض. حيث إنه من دون ذلك يصبح هذا الطوفان عبارة عن ردة فعل سرعان ما تضحل. لذا يكون مهماً أن يتم وضع إستراتيجية للجمع بين الحركات والحركات واللاحركات، والنموذجي هنا هو أن تقود الحركات البقية بكفاءة واقتدار، ولكن إن لم يحدث ذلك فقد تظهر من الحركات واللاحركات قيادات جديدة، أو تنطفئ هذه الحركات واللاحركات بعد حين، إما نتيجة عدم ظهور قيادة تنظم العمل وتكفل استمراريتها، أو جراء انطفاء أو انسحاب القيادات الجديدة التي نشأت من الميدان.

المقاومة في القدس

لا يمكن فصل المقاومة الفلسطينية عن القدس، فالأخيرة منحت المقاومة الفلسطينية جزءاً أساسياً من توقعها للتحرر، ويتوافق على ذلك المسلم والمسيحي، والإسلامي والوطني والقومي والاشتراكي الفلسطيني، فالقدس هي الصمغ اللاصق بين جميع الفلسطينيين، إذ إنها تكونت عبر التاريخ كمدينة ذات أهمية دينية ووطنية وإنسانية سواء بسواء، لذا يتحد جميع الفلسطينيين في الكفاح من أجل تحريرها والذود عنها، كما رأينا في كل هبات القدس داخلها، أو من أجلها من خارجها.

عبرت مركزية القدس للشعب الفلسطيني عن نفسها أيضًا من خلال أشكال تنظيمية، فعوضًا عن كونها مركز الحركة الوطنية الفلسطينية قبل عام 1948، فإنها استمرت في دورها المركزي هذا بعد احتلال ما تبقى منها عام 1967. قاد الكفاح الفلسطيني ضد الاحتلال بعد الحرب مباشرة الشيخ عبد الحميد السائح رئيس الهيئة الإسلامية العليا، حيث أنشأ حينها لجنة التوجيه الوطني إلى أن طردته قوات الاحتلال في العام ذاته، واستمرت المقاومة بعد طرده بقيادة ذات الهيئة، وفي عام 1973 تشكلت الجبهة الوطنية لقيادة كفاح الشعب الفلسطيني في القدس، وكذلك لجنة التوجيه الوطني عام 1978 بعد توقيع اتفاقيات كامب ديفيد (سالم، 2017، ص. 20 - 21)، وظلت القدس مركزية في قيادة الكفاح الفلسطيني حتى بعد تشكل السلطة الوطنية الفلسطينية عام 1994، حيث تقاسم فيصل الحسيني وبيت الشرق عبء القيادة مع رام الله حتى وفاته عام 2001، ثم مرت فترة انتقل فيها مركز الثقل القيادي إلى رام الله، ولاحقًا بالتقاسم مع غزة منذ عام 2007، وبدأ أن مركزية القدس قد تراجع، إلى أن استعادت القدس مركزيتها من خلال الكفاح الشعبي من أسفل، بدءًا بـ «بروفته» الأولى عام 2014 بعد استشهاد الطفل محمد أبو خضير حرقًا على أيدي مستوطنين متطرفين قاموا بخطفه من أمام بيته في شعفاط آنذاك، ثم اشتعلت في مواجهة اقتحامات المسجد الأقصى من قبل المستوطنين المستعمرين عامي 2014 و2015، ووصلت ذروتها عام 2017 من خلال إفشال عملية نصب البوابات على أبواب الحرم القدسي الشريف، وتواصلت الذروة في أعوام 2018 - 2019 في معركة إعادة فتح مصلى باب الرحمة ومنع إقامة كنيس صهيوني فيه، وفي منع فرض الضرائب الاحتلالية على كنائس القدس. مهد كل ذلك لهبتي 2021 و2022 اللتين سنأتي عليهما.

بشكل إجمالي، فقد مر الكفاح الفلسطيني في القدس بعدة مراحل منذ عام 1968، فكانت المرحلة الأولى هي مرحلة تثبيت الوجود (1967 - 1974)، حيث تم الحفاظ



على الأوقاف الإسلامية والمسيحية وشركة كهرباء محافظة القدس ومشافي المدينة من الإلحاق بالاحتلال، كما منع إضراب طويل للمعلمين فرض المنهاج الاحتلالي على مدارس المدينة.

المرحلة الثانية يمكن تسميتها بمرحلة الانتقال من تثبيت الوجود إلى تعزيز الصمود 1974 - 1987. وتلاها المرحلة الثالثة وهي مرحلة الانتفاضة التي تميزت بالانتقال من الصمود إلى الفعل الوطني الكفاحي 1987 - 1993. ورابعاً مرحلة محاولة بناء وجود رسمي فلسطيني مستقل في مدينة القدس من خلال مؤسسة بيت الشرق التي قادها الشهيد فيصل الحسيني 1993 - 2001. وخامساً مرحلة المحللة وتوجه المجتمعات المحلية المقدسية لمحاولة الاعتماد على الذات 2001 - 2017 (سالم، مجلة المقدسية، خريف 2019).

وسادساً وأخيراً مرحلة النهوض من جديد 2014 / 2017 - 2022 ولا زالت هذه المرحلة مستمرة حتى اليوم من خلال الكفاح الشعبي الميداني، الذي يشارك فيه على الأرض أيضاً فلسطينيو الداخل المحتل عام 1948، كما تدعمه مقاومة الضفة وغزة وجموع اللاجئين والجاليات الفلسطينية وقوى التضامن في كل أرجاء العالم.

هبتا 2021 و2022: وحدة الشعب الفلسطيني واستعادة عالمية الكفاح من أجل تحرير فلسطين

مثّلت هبة القدس عام 2021 منعطفًا عن حالة المحلّية التي انحدر إليها الكفاح الفلسطيني بعد انتفاضة عام 2000 التي مثّلت آخر محاولة فلسطينية كفاحية شاملة لتحقيق الاستقلال الوطني الفلسطيني في دولة فلسطينية على حدود الرابع من حزيران عام 1967. فقد أعادت هبة أيار 2021 إطلاق حملة الكفاح الفلسطيني الشامل التي انطلقت من باب العامود وساحات المسجد الأقصى خلال شهر رمضان المبارك نيسان - أيار 2021.

بعد انتفاضة عام 2000 انتقل الكفاح الوطني الشعبي الفلسطيني إلى المحلية، ليتخذ شكل هبات في مواقع بعينها، فيما تقوم المواقع الأخرى بدور الإسناد. جاء هذا التطور في ضوء عوامل مختلفة بعضها موضوعي: كخروج الجيش الإسرائيلي من قطاع غزة عام 2005، مما جعل استمرار الاشتباك الانتفاضي الشعبي المباشر معه غير ممكن، وانكفاء قوات الجيش الإسرائيلي إلى خارج المدن الفلسطينية في الضفة قبل ذلك، وتحول الجيش الإسرائيلي إلى استخدام الأبراج المحصنة وسيارات الجيب المؤمنة في مواجهة المظاهرات الفلسطينية التي استمرت في مواقع محددة مثل كفر قدوم وبلعين ونعلين وأم سلمونة وقرى الأغوار وقرى مسافر يظًا. وترافق ذلك مع العوامل الموضوعية في الجانب الاقتصادي، حيث بينت محاولات الانفكاك عن الاقتصاد الإسرائيلي في الضفة عدم قدرة على التنفيذ بسبب الإجراءات الإسرائيلية الكابحة لأي خروج عن بروتوكول باريس الاقتصادي لعام 1994 والذي يتعامل مع فلسطين المحتلة عام 1967 وإسرائيل في إطار اتحاد جمركي واحد، ومن آخر الأمثلة على فشل تجارب الانفكاك تجربة التوقف عن استيراد العجول من إسرائيل عام 2019، وما تلاه من وقف إسرائيل لاستيراد المنتجات الزراعية الفلسطينية ومنعها لفلسطين من استيراد عجول من دول بديلة، وفي النهاية اضطرت فلسطين لاستيراد العجول من إسرائيل، كما عادت عن كل قرارات الانفكاك الاقتصادي عنها. شهدت ذات الفترة حروبًا ثلاثًا على قطاع غزة اكتست طابعًا دمويًا وتدميرياً في أعوام 2008 - 2009، و2012، و2014.

يضاف للعوامل الموضوعية الكابحة للفعل الانتفاضي الفلسطيني الشامل، عوامل ذاتية، لعلّ أولها يتمثل في عدم تطوير رؤية لانتفاضة فلسطينية ثالثة تأخذ بعين الاعتبار اختلاف الظروف عن الانتفاضات السابقة من حيث انسحاب الجيش الإسرائيلي



خارج المدن الفلسطينية في الضفة وخارج غزة، ومشكلات المقاطعة الاقتصادية لمنتجات الاحتلال في ظل حاجة غزة المغلقة من جميع الجهات إليها، وعدم التركيز على الزراعة وتطوير بدائل وطنية للمنتجات الإسرائيلية في الضفة، وعدم اعتماد نهج التنمية المبني على المجتمع المحلي لتعزيز الاعتماد على الذات اقتصادياً.

مع ذلك، لا تعيش الحياة النضالية الفلسطينية في فراغ إلى حين بزوغ الرؤية الشاملة للكفاح الفلسطيني وتفعيل قيادتها المنظمة، ولكن ما حصل هنا أن الكفاح الشعبي الفلسطيني، لاسيما في الداخل كان قد تشظى حتى جاءت هبة أيار 2021 لتعيد له وطنيته الشاملة. وكان قد أصبح محلياً أو محلاً لا يهدف للتحرير والاستقلال وإنما للرد على إجراءات احتلالية معينة وهزيمتها وحسب، وتثبيت وجود الشعب الفلسطيني على أرضه لمنع اقتلعه. لم يقلل ذلك من بطولة الفاعلين على الأرض ولا من نبيل أفعالهم وإخلاصهم وتضحياتهم، ولكنه ربما يزيد من قيمة هذه البطولات كونها تتم بجهود محلية في ظل غياب إستراتيجية مقاومة منظمة شاملة. ويمثل النجاح في دحر محاولات الاحتلال ترحيل فلسطينيي الخان الأحمر، والمعارك المستمرة لتثبيت وجود العراقيين وغيرها من القرى غير المعترف بها إسرائيلياً في النقب، وكفاح اليافاويين ضد بيع عقاراتهم من قبل شركة عميدار الإسرائيلية، وكفاح قرى الأغوار ومسافر يطا المستمر أمثلة على هذا الكفاح البطولي المثابر ومنقطع النظير.

في القدس أعيد انبثاق الكفاح الذي تجاوز المحلية، وذلك لأن تثبيت الوجود الفلسطيني في القدس يكتسي معنى إضافياً خاصاً، له علاقة بمركزية القدس كعاصمة لفلسطين وأهميتها الدولية كما ورد آنفاً، والسعي الصهيوني لتحويلها بناء على ذلك إلى مفتاح لتنظيم كل الحجيج الدولي والعربي والإسلامي إليها من

خلال البوابة الإسرائيلية، إضافة للمساعي الإسرائيلية المحمومة لتهدوها وأسرلتها بشكل شامل مكاناً وأرضاً وإقليمياً وفضاءً ومشهداً، بتغيير معالمها الأثرية، واختراع أماكن توراتية فيها، وفرض مشهد عبري عليها عبر مشاريع مثل التفريك من جبل الزيتون نحو حائط البراق، ومشروع القطار من حائط البراق إلى تل أبيب، وإنشاء الحدائق التوراتية. هذا إضافة لاختراق القدس من الداخل عبر المساعي لترحيل فلسطينيها وإحلال مستوطنين مستعمرين مكانهم في الشيخ جراح وحرارات مختلفة من سلوان، والمخططات لاقتلاع قرية الولجة قرب بيت لحم وترحيل مواطنيها، والمخططات الأخرى لتوسيع ما يطلق عليه اسم مستعمرة هار حوماه المقامة على أراضي جبل أبوغنيم المحاذي لبيت ساحور، ومستعمرة عطروت على حساب مطار القدس، ومستعمرة جفعات همثوس على حساب أراضي قرية بيت صفافا، ومستعمرة أي 1 الهادفة لتوسيع مستعمرة معاليه أدوميم بما يقطع التواصل الإقليمي الفلسطيني من جهة الشرق. هذا ناهيك عن التوسيع المستمر للقدس على حساب أراضي باقي الوطن، بما يشمل الخطط الاستعمارية الصهيونية الجاري العمل عليها حالياً لتوسيع ما يسمى بـ«القدس الكبرى» لتصل حتى البحر الميت شرقاً، ومشارف مدينة الخليل جنوباً، وحتى منتصف الطريق إلى مدينة نابلس شمالاً. ولا يكاد يمر يوم دون الإعلان عن خطة إسرائيلية جديدة لتهدويد المدينة، مما يجعل حياة المقدسي الفلسطيني اليومية حكاية صمود يومي، فالدفاع عن الوجود اليوم، لا يكفي لحماية هذا الوجود في اليوم التالي، ففي اليوم التالي عليك كمقدسي أن تعيد خوض معركة تثبيت الوجود من جديد وهكذا كل يوم. هذا ما أصبحت عليه الحالة المقدسية: حالة دفاع مستمر عن الوجود، مجرد الوجود. وبلغت أخرى حالة صراع للبقاء في الحيز ومنع التهجير والاقْتلاع منه، واستمر ذلك حتى هبة أيار 2021 لتنتقل المعركة من



مجرد معركة تثبيت وجود إلى حملة وطنية شاملة لتكريس الوجود وإنهاء الاحتلال والاستيطان الاستعماري في آن معاً. ولم تأت هبة 2021 صدفة، فقد جاءت تراكمًا لاختتمات سابقة تمثلت في الهبّات المحلية في القدس في أعوام 2014، 2015، 2017، و2019. وفي الأخيرتين شارك فلسطينيو الداخل بشكل كبير أيضًا.

أثناء هبة رمضان/ أيار 2021 حال المقدسيون ومن معهم في الميدان من فلسطيني الداخل دون إغلاق باب العامود الشريان الحيوي للقاء المقدسين أصدقاء ونشاطات ثقافية وفنية، تمامًا كما كانت ساحة «أغورا» في أثينا القديمة، كما أوقفوا في نفس الفترة اقتحامات المستوطنين المستعمرين للأقصى وتصدّوا لقمع الاحتلال لمسيرة سبت النور التي نظمها مسيحيو القدس يوم الثاني من أيار 2021، وشارك المقدسيون بقضهم وقضيضهم في تحقيق هذه الإنجازات: بشيهم وشبانهم، ورجلهم ونسائهم، وبفصائلهم الفلسطينية والمستقلين عنها، وبمسلميههم ومسيحييههم، بالمساواة بين الجميع ودون استثناء أحد، ولا سطوة لأحد على الآخر، ورفعوا شعارات وطنية لا فتوية إلا في حالات محدودة رفعت فيها شعارات فتوية وجرى تطويقها سريعًا. وبهذا أرسلوا رسالة للعالم وللمطبعين الجدد من العرب بأن القدس فلسطينية عربية لا بالشعار فقط، ولكن من خلال أهلها الذين يصنعون الصمود يوميًا فيها، وأن زيارة المدينة تتم فقط من خلال التنسيق مع أهلها الفلسطينيين الشرعيين، وليس من خلال بوابة الاحتلال.

شملت هبة أيار ساحات باب العامود، والمسجد الأقصى، والشيخ جراح. ولباب العامود حكاية تتطلب تسليط الأضواء على بعض جوانبها هنا، فبعد توقيع اتفاق إعلان المبادئ الفلسطيني الإسرائيلي (اتفاق) عام 1993، حوّل الاحتلال باب الخليل المؤدي

إلى البلدة القديمة بابًا لدخول اليهود بشكل خاص إليها لقربه المباشر للقدس الغربية، كما حوّل باب المغاربة إلى باب لدخول المتطرفين اليهود والأفنجليكانيين المسيحيين إلى المسجد الأقصى، وحتى عام 2020 بقي باب العامود وسائر أبواب القديمة مفتوحة لدخول الجميع، وفي الممارسة كان باب العامود وباب الحديد وباب الساهرة هي الأبواب الثلاثة الرئيسة التي يستخدمها الفلسطينيون مسلمين ومسيحيين للنفوذ إلى البلدة القديمة دون أن يمنع ذلك دخول اليهود أيضًا من هذه الأبواب. هكذا كانت الحال حتى تشرين الأول/ أكتوبر عام 2020، حيث قام الاحتلال بوضع لافتة معدنية على مدخل باب العامود باسم «هدار وهداس» وذلك تكريمًا منه لمجندتين قتلتا عامي 2016 و2017 هما هدار كوهين وهداس ملكا. ولذلك لم يكن صدفة أن قام الاحتلال بإغلاق باب العامود في بداية رمضان/ نيسان 2021 لمنع التجمهرات الفلسطينية فيه بذريعة «تسهيل وعدم عرقلة حركة المرور»، فهذا الإجراء الذي طرح على أنه مجرد إجراء تقني أراد استكمال خطوة تشرين الأول/ أكتوبر عام 2020 بإعادة تسمية باب العامود بأسماء يهودية، وبالتالي البدء في حصر حرية وجود الفلسطينيين فيه، وذلك لتسهيل وتيسير حركة دخول وخروج اليهود المتطرفين من البلدة القديمة عبره دون «عثرات جسدية» فلسطينية. أدرك شباب وشابات القدس هذا الخطر، فهبوا المنعه ونجحوا في ذلك، ولكن ذلك لا يعني وجود أية ضمانات لأن لا يعيد الاحتلال الكرة من جديد مستقبلاً، فالحياة في القدس هي كر وفر مع الاحتلال بشكل يومي.

وفي هبة أيار 2021 نجح المقدسيون في تثبيت منع التقسيم الزمني للمسجد الأقصى، ومنع تهويد باب العامود، فيما استمرت معارك الكر والفر ضد الترحيل في الشيخ جراح، ومواقع سلوان: البستان (المخططات الإسرائيلية لترحيل 1000 شخص تمهيدًا لإقامة حديقة توراتية) وبطن الهوى (المخططات الإسرائيلية لترحيل 700 شخص، تمهيدًا



لتوسيع مستعمرة قامت بإنشائها منظمة إبعاد الصهيونية المتطرفة، كما يعاني أهل بطن الهوى من الحفريات الإسرائيلية الجارية ليل نهار تحت بيوتهم) ووادي الرابطة (المخططات الإسرائيلية لترحيل 800 فلسطيني، تمهيداً لإقامة حي استعماري لليهود الفرنسيين)، ووادي ياصول (المخططات الإسرائيلية لهدم بيوته كلها المكونة من 88 بيتاً، بهدف توسيع ما يسمى بـ«غابة السلام»)، هذا إضافة لمخططات أخرى بشأن حارات أخرى في سلوان كوادي حلوة، وعين اللوزة. الملاحظة هنا أن الكفاح من أجل الدفاع عن الأقصى وباب العامود اتخذ طابعاً مقدسياً ووطنياً شاملاً مسنوداً عالمياً، وكذلك الكفاح للحفاظ على الشيخ جراح. وهو ما يحتاج لمدة من أجل حماية مواقع سلوان المذكورة أيضاً.

وأثناء هبة أيار 2021، كان يوم العاشر من أيار (الثامن والعشرون من شهر رمضان المبارك) يوماً مفصلياً. قبل يومين من العاشر من أيار، أي يوم الثامن منه تقاطرت مئات الحافلات التي كانت تقل فلسطينيي الداخل مساءً نحو القدس من أجل المشاركة في إحياء ليلة القدر في المسجد الأقصى المبارك. قرب قرية أبوغوش نصبت شرطة الاحتلال حواجزها لمنع الحافلات من العبور نحو القدس، فما كان من ركبائها من فلسطينيي الداخل إلا أن نزلوا من الحافلات وبدؤوا المسير على الأقدام نحو القدس. سرت أخبار ذلك بين المقدسيين، فهبوا بسياراتهم الخاصة لنقل أخوتهم وأخواتهم من فلسطين الداخل حاملين معهم حبات التمر والماء من أجل تقديمها لهم عند أذان الإفطار. وتقاطر سائقو سيارات الأجرة لنقل أهلهم من الداخل مجاناً إلى الأقصى، وسارع مقدسيون آخرون إلى نصب موائد الإفطار في كل المداخل المؤدية إلى المسجد. أدى مشهد الآلاف المؤلفة السائرة على الأقدام نحو القدس، وآلاف السيارات المقدسية التي وصلت هناك لنقلهم نحو المسجد الأقصى إلى إغلاق الطريق المعاكس من القدس إلى تل أبيب، وكان الدرس بليغاً للشرطة الإسرائيلية والحكومة التي تقف

وراءها: تغلقون طريق تل أبيب القدس، لا بأس: نحن سنرد بإغلاق الطريق المعاكس من القدس إلى تل أبيب. فهتمت الشرطة الرسالة بسرعة وأجبرها الموقف على فتح الطريق نحو القدس لكي تضمن إعادة فتحه من الاتجاه المعاكس. وكان الدرس بليغاً بأن إسرائيل لا تستطيع فرض ما تشاء على الأرض. ومن جهة أخرى تحققت وحدة الشعب الفلسطيني من خلال اللقاء على أرض المعركة، وتجسدت على الأرض دون بيانات ولا شعارات.

في يوم الثامن من أيار، كانت المعلومات قد تأكدت عن نية غلاة المستعمرين تنظيم مسيرة خلال ما يسمى بـ«يوم القدس»، وأن المسيرة ستمر كما فعلت عام 2020 في باب العامود بحماية من الشرطة الإسرائيلية، وتتجه لاقتحام المسجد الأقصى. استعداداً لذلك رابط المقدسيون وفلسطينيو الداخل داخل المسجد الأقصى. وفي صباح العاشر من أيار وقف عدد من غلاة المستوطنين على بوابة باب المغاربة، منهم أعضاء كنيسة، مطالبين الشرطة بأن تخلي لهم الطريق لكي يتمكنوا من اقتحام الأقصى. حاولت الشرطة إخلاء المسجد من آلاف المصلين المسلمين لكي تهيئ الدخول للمستوطنين، ولكنها لم تتمكن من ذلك، كما أن مناقشات الشباب المقدسيين مع قوات الاحتلال قد استمرت طيلة اليوم في كل أنحاء المدينة، مما اضطر الشرطة الإسرائيلية لاتخاذ قرار بمنع مرور مسيرة المستوطنين من باب العامود ومنع توجيهها نحو الأقصى لحماية للمستوطنين المستعمرين. ما حصل بعد ذلك أن المسيرة ذاتها والتي لم تمر بباب العامود قد تفرقت وهرب المشاركون فيها فور إطلاق الصواريخ الفلسطينية من غزة نحو القدس في تمام الساعة السادسة مساءً. وكانت تلك أول مرة يتم فيها إلغاء استكمال تلك المسيرة منذ عام 1967.

على الجبهات الأخرى داخل المدينة، كانت عائلات الشيخ جراح قد حصلت يوم



الثاني من أيار على قرار قضائي إسرائيلي بتجميد قرارات ترحيلها لمدة شهر، وذلك حتى يتسنى خلالها للمستشار القضائي للحكومة الإسرائيلية النظر في القضية مجدداً وإعطاء رأيه فيها. التجميد الذي تم لا يعني أن قرار الترحيل سيلغى، ولكن الفرص لذلك كانت عالية، إذ وصل «هاشتاغ» الشيخ جراح إلى قسم هائل من سكان العالم، حيث ترجم إلى لغات كثيرة مختلفة، كما أن قضية الشيخ جراح والمسجد الأقصى قد استثارت هبة شعبية فلسطينية عمّت كل أرجاء الوطن والداخل الفلسطيني، كما انتشرت في العديد من المدن العربية مظاهرات حاشدة، وسقط شهيد في المظاهرة اللبنانية على الحدود مع إسرائيل، وجرحى أردنيون في مظاهرة أخرى على الحدود. وسارت مسيرات حاشدة في مختلف المدن الأميركية وفي مدن الدول الإسلامية كتركيا والباكستان وغيرهما. وأطلقت صواريخ باتجاه إسرائيل من لبنان وسوريا، ودخلت غزة في حرب مع إسرائيل لمدة أحد عشر يوماً باسم «سيف القدس» ابتداء من يوم العاشر من أيار المشهود الذي عبّر عن وحدة فلسطينية شاملة ومنقطعة النظير وبتناغم كامل بين كل أبناء الشعب الفلسطيني في كل أماكن تواجده. وتكرر المشهد ذاته في يوم الإضراب الشامل، يوم الثلاثاء الثامن عشر من أيار والصفحات الكفاحية المجيدة التي سطرها الشعب الفلسطيني في كل أماكن تواجده في ذلك اليوم.

هبة نيسان / أيار 2022

تميزت هبة 2022 عن هبة 2021 بأخذ الفلسطينيين زمام المبادرة منذ البداية، فقد شهد شهرا آذار ونيسان 2022 سلسلة عمليات كفاحية داخل المدن الإسرائيلية وضد المستوطنين في مختلف مناطق الضفة المحتلة عام 1967. هذا لا يعني أن هبة 2021 قد خلت من المبادرة. صحيح أن تلك الهبة قد جاءت كرد فعل على إجراءات الاحتلال

في المسجد الأقصى المبارك والشيخ جراح وسلوان، ولكنها لم تكتسي طابع ردة الفعل فقط، بل تضمنت مبادرات إبداعية في القضاء المجتمعي الجديد جندت شعوب العالم إلى جانب فلسطين، كما تضمنت مبادرات حالت دون اقتحام المستوطنين المتطرفين للمسجد الأقصى. أما هبة 2022 فقد تجاوزت ما تقدم بالمبادرة من البداية. ولعل هذه المبادرة من البداية في آذار ونيسان 2022، قد كان أحد العوامل التي ساهمت في تراجع حدتها في أيار حين أصبح عدد المرابطين داخل المسجد الأقصى أقل مما كان عليه، وتقلصت مشاركة المقدسيين وفلسطينيي الداخل في هذا الرباط، مما مكن الاحتلال من السيطرة على المرابطين الذين اقتصر وجودهم على المسجد القبلي، حيث قام باقتحام المسجد القبلي واعتقال 470 منهم لتسهيل اقتحام المستوطنين المتطرفين لساحات المسجد في الصباح. ساهم قمع الاحتلال واعتقال النشطاء وتعذيبهم والتحقيق معهم طيلة الفترة ما بعد هبة أيار 2021 في تراجع المشاركة في الفعاليات، كما أن حارات القدس وقرائها وبلداتها لم تشهد فعاليات كعام 2021، فيما انتعشت في المقابل مدن وقرى الضفة الغربية، ولم تتدخل المقاومة في غزة بإطلاق الصواريخ كما حصل عام 2021. ولم تثر هبة 2022 ما أثارته هبة 2021 من أعمال تضامن عربية وعالمية مع فلسطين. مع ذلك يجب الإشارة إلى حدثين لهما مغزى وقعا في هبة 2022، الأول يتعلق بمسيرة تشييع جنازة الشهيدة شيرين أبو عاقلة يوم 13 أيار من جنين، ف نابلس، فرام الله، ثم القدس، حيث شهد ميدان عمر بن الخطاب في باب الخليل أكبر مسيرة تشييع رفعت الأعلام الفلسطينية، لم يجر لها مثل منذ تشييع الشهيد فيصل الحسيني عام 2001، وذلك رغم قمع الاحتلال لمسيرة التشييع التي كان يجب أن تتم من مشفى مار يوسف (المشفى الفرنساوي) في الشيخ جراح نزولاً نحو باب الخليل. والثاني هو تشييع الشهيد وليد الشريف في مقبرة باب الساهرة يوم 16 أيار 2022، حيث هربت



شرطة الاحتلال من شارع صلاح الدين الذي تقع فيه المقبرة ربعاً من غضب المشاركين في التشييع الذين ألغوا كل شيء تمكنت أيديهم من حمله على شرطة الاحتلال. في المقابل كان يوم 29 أيار يوماً مشهوداً في الإظهار للعالم بأن القدس هي مدينة محتلة رغم كل ادعاءات الاحتلال بأنها العاصمة الموحدة والأبدية لدولته، ففي ذلك اليوم تجند 3500 شرطي احتلالي لحماية مسيرة رفع الأعلام المنظمة من قبل المستوطنين، وأغلقت كل الطرق التي سلكتها المسيرة أمام الفلسطينيين، وفيما طاف 70 ألف مستوطن حوالي البلدة القديمة و/ أو دخلوا إليها مرددين شعارات مثل «الموت للعرب» بحماية الشرطة، أطلقت مسيرة تحمل العلم الفلسطيني في سماء القدس، وجرت مظاهرة رفع أعلام فلسطينية كبيرة موازية في شارع صلاح الدين المجاور. وكان قد سبق هذه المسيرة مسيرات نهائية أصغر للمستوطنين وصلت باب العامود تصدى لها الشباب المقدسي ببسالة وجعل قسماً من أفرادها يهربون، وكانت مسيرات أخرى قد اقتحمت البلدة القديمة في 20 نيسان قادها المتطرف ايتمار بن غفير، قام الشبان الفلسطينيون بركلهم وضربهم حينذاك مما جعلهم يهربون من البلدة القديمة.

مقارنة بين الهبتين

تتمثل طبيعة المعركة الجارية بين الاحتلال وبين الشعب الفلسطيني في سمتها بأنها لا زالت معركة كر وفر يسجل فيها الشعب الفلسطيني بعض النقاط، فيما يسجل الاحتلال نقاطاً أخرى. معنى حالة الكر الفرهي أن الاحتلال لم ينتصر بعد، كما لم يهزم بعد، وذات المعنى ينطبق على الشعب الفلسطيني الذي لا زال صامداً ويقاوم رافضاً أن يهزم رغم كل شيء، ولكن يجب القول إنه في المقابل لم ينتصر بعد.

من النقاط التي حققها الشعب الفلسطيني في الهبتين، أولاً: إعادة اكتشافه لوحده في

عموم الوطن والخارج، وهذا الأمر ليس بقليل الأهمية. والأهم هو تصرفه بتضامن تام معاً أيضاً خلال الهبتين. وثانياً: اكتشافه أن معركة تثبيت الوجود في فلسطين هي معركة كر وفر مستمرة، لا يمكن تحقيق الانتصار التام كمرحلة لاحقة دون خوضها معاً وكشعب موحد حتى نهايتها. وثالثاً: إعادة اكتشافه الجمعي أن الكفاح هو المدخل لجعل المشروع الصهيوني يندحر.

أما من جهة المشروع الاستيطاني الاستعماري، فلا زال يحقق توسيع المستوطنات الاستعمارية، وسرقة الأرض، وعمليات تغيير المكان والفضاء والمشهد، كما استطاع فرض التقسيم الزمني في المسجد الأقصى. ولكنه في المقابل لا زال غير قادر على وقف مقاومة الشعب الفلسطيني، وعلى تهجير الشيخ جراح والخان الأحمر وغيرهما، والأهم أنه لا زال غير قادر على تحقيق ما سماه بـ«النصر التام على الشعب الفلسطيني» الذي دعا له دانييل بايبس وتشكلت له كتل داعمة في الكنيسة الصهيوني وفي الكونغرس الأميركي (بايبس، 2017)، كما أن شعبيته بين شعوب الدول الغربية وبرلماناتها وبعض حكوماتها قد باتت تشهد تآكلاً.

ساعدت هبة عام 2021 الشعب الفلسطيني على إدراك أهمية وحدته ووحدة فعله، وذلك في إطار مساندة الساحات لبعضها البعض وتناقل الأعباء بين بعضها البعض، طالما أن العبء سواء في غزة أو في الضفة تحمله ذات الفصائل التي تعمل بوحدة بين جناحي الوطن. هذا وقدمت الأسباب الموضوعية التي ذكرت أعلاه بعض التفسير لتراجع المشاركة الشعبية في بعض فعاليات 2022 (وليس كلها) عن عام 2021، ولكن مرة أخرى فإن التراجع لوقت محدد هو جزء من معركة الكر والفر المستمرة، والتي في غمارها تكون هناك «استراحات مؤقتة للمحارب»، كما يمكن الادعاء أن هبة 2022 قد اندلعت في



وقت كان لا زال فيه النشطاء على المستوى الذاتي لا يزالون في مرحلة استيعاب وتمثل دروس هبة 2021، حيث فاجأتهم الأحداث المتسارعة قبل الاستكمال التام لهذا التمثيل. يجب هنا التأكيد مرة أخرى أن أحد قوانين حرب الكر والفر هو استنزاف قدرات الطرف الآخر من أجل إنهاكه وتحقيق السيطرة عليه، وفي هذا الأمر لا زال الاحتلال أكثر تفوقاً في ديناميكية خطواته من أجل استنزاف قوى الشعب الفلسطيني، فما يكاد يمر يوم دون أن يعلن عن خطوات جديدة ينهمك الشعب الفلسطيني في الرد عليها قبل الانتهاء من الرد على سابقتها التي تتكرس على الأرض، بما يعني تراكم «الحقائق» التي يخلقها الاحتلال على الأرض. فكيف السبيل للانتقال إلى العكس وهو أن يتحول الشعب الفلسطيني إلى حالة الاستنزاف اليومي للاحتلال؟ يتطلب ذلك خطوات مقاومة سياسية ودبلوماسية، وكفاحية ميدانية، واقتصادية وتنموية، وقانونية، وإعلامية، ومعرفية متناسقة ينخرط فيها الكل الفلسطيني معاً في الوطن وجموع اللاجئين والجاليات الفلسطينية في كل أنحاء العالم، ومعها المتضامنون الدوليون، تكون ساحة كفاحها الرئيسة هي كل الوطن بكل أجزائه، وبتضامن ودعم من كل متضامني ساحات العالم.

خاتمة

حاولت هذه الورقة تأطير الكفاح الوطني الفلسطيني ضمن مفهوم المقاومة الشعبية متعددة الأشكال، وذلك كمخرج من ثنائية المقاومة السلمية والمقاومة المسلحة، واللاعنف مقابل العنف، فلم يكن اللاعنف هو الوحيد الذي مورس في ثورات الهند وجنوب إفريقيا كما يشاع، بل ترافق مع أعمال كفاحية مسلحة تتضمنها الدراسات الموثقة عن التجربتين.

حاولت الورقة أيضاً تأطير هذه المقاومة ضمن أشكال ستة سردتها، كما حاولت تجاوز

فكرة التنظيم القائم على الحركات وحسب، لتطرح مزيجًا من الفعل المتناغم للحركات والحركات واللاحركات مع بعضها البعض. وفي هذا الإطار تجاوزت الورقة السجال السياسي حول ما طرح من تحليلات حول أن تدخل غزة المسلح عام 2021 قد أدى إلى إجهاض الكفاح الشعبي والحيلولة دون وصوله إلى منتهاه بتحقيق أهدافه، كما تجاوزت الطرح المقابل الذي حملّ غزة مسؤولية عدم التدخل لدعم هبة 2022 بالصواريخ كما حصل عام 2021. فنقاش الثنائيات المتقابلة التي يزايد كل منها على الآخر هو أهم ما يجب أن يتجاوزه الشعب الفلسطيني. وأخيرًا تجاوزت الورقة السجال الثنائي حول اعتبار هبتي 2021 و2022 نصرًا أو هزيمة، لصالح خط تفكير يتحدث عن معركة تثبت الوجود بوصفها معركة مستمرة، حيث لم ننهزم فيها بعد، كما لم نتصر في المقابل بعد، حيث لا زالت المسيرة طويلة حتى تحقيق ذلك الانتصار.

إلى أين، من هنا؟ هل هو نحو تحقيق النصر والتحرير؟. ليس بعد، حيث سيتواصل الكفاح بالبناء على هبتي 2021 و2022، من أجل تثبيت الوجود بوصفه معركة مستمرة كما حاولت الورقة أن تبين، ليس فقط من أجل منع الترحيل، وإنما أيضًا من أجل بناء الذات ممثلة بالرأس المال البشري الفلسطيني النوعي الذي يملك المهارات والقدرات لخلق وطن حر جدير به من خلال الكفاح المشترك للكل الفلسطيني.

ينتظر المقاومة الشعبية الفلسطينية تحقيق المزيد من النجاحات في أوجهها الستة المذكورة آنفًا، ومن ذلك العودة الكاملة إلى منهج التحرر الوطني، وبناء المؤسسات وتلبية احتياجات الشعب بما يتوافق مع تعزيز الكفاح الوطني، وتجفيف المستعمرات على طريق إزالتها عبر النجاح في وقف العمل فيها ومقاطعة المنتجات الصهيونية والمزيد من سحب الاستثمارات من داخل دولة الاحتلال ومستعمراته، وتعزيز عوامل الانكفاء



لدولة الاحتلال، وتحصيل قرارات قضائية دولية بإدانة جرائمها في الماضي والحاضر، وعزلها في المؤسسات الدولية، ووقف التطبيع العربي معها وإعادة إطلاق الجبهة العربية المساندة لفلسطين، وإعادة طرح مشروع قرار في الأمم المتحدة لتصنيفها مجدداً كدولة عنصرية، وتحقيق وحدة وطنية فصائلية فلسطينية ترتقي إلى مستوى الوحدة الشعبية المتحققة، وترشيد الحركات واللاحركات القائمة وترشيد عملها وتنظيمه والارتقاء به إلى حالة مستدامة من الفعل تتجاوز مجرد الهبات الموسمية، النجاح في معارك محددة للبناء عليها في تراكم الإنجازات نحو الانتصار مثل حماية الشيخ جراح، ومواقع بطن الهوى ووادي ياصول والبستان ووادي الرابطة وغيرها في سلوان والخان الأحمر ومسافر يطا، وكذلك النجاح في خلق تنمية محلية معتمدة على الذات ومستقلة عن الاحتلال، وتنمية قطاع غزة وإعادة إعمارها، ودعم كفاح فلسطيني الداخل لوقف مصادرة أراضيهم وهدم بيوتهم، ولتعزيز دورهم في المشاركة في الكفاح الفلسطيني بأسره، وإطلاق المزيد من المبادرات الداعمة لحق عودة اللاجئين الفلسطينيين. وإسقاط القوانين والإجراءات التي تشرعن مصادرة الأراضي وهدم البيوت في كل فلسطين، وإعادة السيطرة على ساحات المسجد الأقصى من قبل الأوقاف الإسلامية وإخراج شرطة الاحتلال من ساحاته ووقف اقتحامات المستوطنين المستعمرين له باعتباره حقاً حصرياً للمسلمين دون غيرهم، وإعادة فتح مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية في مدينة القدس، وتأكيد حق الفلسطينيين المقدسيين غير المنقوص في المشاركة في أي انتخابات رئاسية وتشريعية وللمجلس الوطني الفلسطيني، وبلديتهم المقدسية (أمانة القدس) التي أعلن الاحتلال حلها عام 1967، وإلغاء كل قرارات الترحيل وهدم البيوت المتخذة، وشمول قضايا القدس في أي اتفاق هدنة، وكذلك في أي مشاريع لطلب الحماية الدولية للشعب الفلسطيني من بطش الاحتلال السافر، وتعزيز الإنتاج

المعري عن فلسطين ماضيها وحاضرها ومستقبلها وهكذا، أي إن المعركة لتثبيت الوجود الوطني الفلسطيني في فلسطين وتعزيز السيادة الشعبية من أسفل من فيها لا زالت مستمرة، ويبدو في الأفق الفلسطيني أنها لن تتوقف وعليها مراكمة الإنجازات طالما استمر الاحتلال في مخططاته التصفوية للبشر والحجر في المدينة، وذلك في إطار السعي لتحقيق الهدف الإستراتيجي للتحرر التام.



المراجع

- بيات، آصف 2013. الحياة سياسة: كيف يغير بسطاء الناس الشرق الأوسط. القاهرة: المجلس القومي للترجمة.
- حنفي، ساري، وطبر، ليندا 2006. بروز النخب الفلسطينية المعولمة: المانحون، والمنظمات الدولية، والمنظمات غير الحكومية المحلية. رام الله: مواطن المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية، ومؤسسة الدراسات المقدسية.
- زريق، رائف، 10/8/2020. «التعريف الجديد للاسامية.. في الجوهر تحصيل للاحتلال». www.madarcenter.org
- زريق، رائف، 11/7/2019. «هل حق العودة هو لا سامية؟». www.natourcenters.com
- سالم، وليد حزيان، 2017. «مركزية القدس الشرقية: النضال الوطني الفلسطيني 1967 - 1987». في: دولة فلسطين، منظمة التحرير الفلسطينية - دائرة شؤون المفاوضات. 50 عامًا على الاحتلال. ص. 20 - 21.
- سالم، وليد خريف، 2019. «الحركات الاجتماعية في القدس الشرقية من الكفاح الوطني العام إلى الكفاح التنموي المحلي وبناء السيادة من أسفل». مجلة المقدسية: العدد الثالث. ص. 141 - 168.
- سالم، وليد صيف، 2021. «في التحرر المعرفي: مساهمة أولية في تشكيل إطار تفكير فلسطيني» مجلة أوراق فلسطينية: عدد 27، ص. 73 - 82.
- سالم، وليد تموز، 2021. «الكفاح القانوني الفلسطيني: تصريح بلفور وتبعاته مثلاً. مجلة المستقبل العربي: عدد 509. ص. 130 - 140.
- سالم، وليد كانون ثاني، 2022. «التحرك عكس التيار العالمي السائد: المقاومة الشعبية كقاطرة لنقل الشعب الفلسطيني من الاحتلال إلى الاستقلال». في: جراد، نايف محرر. تقرير عن أعمال مؤتمر فلسطين 2022 إلى أين؟. ص. 69 - 73.
- سعيد، إدوارد 1981. الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية.
- سعيد، إدوارد 1997. تعقيبات على الاستشراق. عمان: دار الفارس.
- عزم، أحمد جميل 2019. الشباب الفلسطيني من الحركة إلى الحراك 1908 - 2018. رام الله: مركز مسارات.
- غانم، هنيدة، ودكور، عازر أيار، 2018. إسرائيل والأبارتهايد: دراسات مقارنة. رام الله: مدار - المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية.

- مازن قمصية 2011. المقاومة الشعبية في فلسطين تاريخ حافل بالأمل والإنجاز. رام الله: مواطن: المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية.
- مجموعة من الباحثين 1990. الانتفاضة مبادرة شعبية. رام الله: بدون دار نشر.

English Resources

- Acuna, Adolfo 2007. Occupied America: The Chicano Struggle Towards Liberation. 6th ed. New York: Longman.
- Benjamin, Walter 2021. Toward the Critique of Violence. Stanford University Press.
- Blauner, Robert 1972. Racial Oppression in America. Harper and Row.
- Casanova, Pablo Gonzalez 1965. Internal Colonialism and National Development. Washington University: Social Science Institute.
- Darwish, Marwan 2015. Popular Protest in Palestine. London: Pluto Press.
- Fanon, Frantz. The Wretched of the Earth. New York: Grove Press.
- Freire, Paulo 1968. The Pedagogy of the Oppressed. New York: Seabury Press.
- Mignolo, Walter 2007. " Delinking: The Rhetoric of Modernity, The Logic of Coloniality, and the Grammar of De - Coloniality " Cultural Studies, v.21, no. 2 - 3, pp. 449 - 514.
- Pipes, Daniel January 2017. " The Way to Peace: Israel Victory, Palestinian Defeat " .
www.danielpipes.org
www.meforum.org
- Quijano, Anibal 2007. "Coloniality and Modernity / Rationality". Cultural Studies. V. 22, No. 2 - 3, pp. 215 - 232.
- Stanford Encyclopedia of Philosophy. Jean Francois Lyotard. www.plato.stanford.edu
- Spivak, Gayatri Charkravorty 2021. Can the Subaltern Speak ?. Afterall Books.
- Telly, Charles 2014. Social Movements 1768 - 2004. London: Paradigm Publishers.
- Zureik, Elia 1979. The Palestinians in Israel: A Study in Internal Colonialism. Routledge and Kegan Paul.